

من أدب النكسة...

قراءة لقصص «فارس مدينة القنطرة»

بقلم سليمان فياض

المراثي الذي عرفه تاريخنا وأدبنا العربي ، اثر ضياع الاندلس ، وجزر البحر الابيض المتوسط من أيدي العرب قبل خمسة أو ستة قرون فقط .
لونان من ادب النكسة

من ادب النكسة الذي عرفه أدبنا العربي ، بعد الخامس من حزيران ، لوانان من الادب في باب القصة ، نقرر حديثنا هنا عليهما في هذا المقال .

اللون الاول تعبر عنه القصص القصيرة والطويلة التي عالجت موضوع الصراع العربي الاسرائيلي ، مثل « سداسية الايام الستة » لاميل حبيبي ، و « عودة الطائر الى البحر » لحليم بركات ، واقصوصة « اوراق شاب عاش منذ الف عام » ، وبعض قصص مجموعتي القصصية « احزان حزيران » ، وعديد من قصص « غسان كنفاني » وآخرين سواهم .
واللون الثاني تعبر عنه القصص القصيرة والطويلة للاكثرية الساحقة من قصاصينا العرب ، بعد الخامس من يونيو (حزيران) ، والتي عالجت موضوع الواقع العربي ، باعتبار ان ما فيه من تخلف وتقاليد ، وروح قبيحة ، وبدادة ، وقصور عن مواجهة التحدي الحضاري للعصر ، هو الذي اثر نكسة ١٩٦٧ ، وما قبلها من نكسات القرن العشرين ، وباعتبار ان الواجهة الوجدانية بالادب ، والعصرية بالعلم ، هي الطريق الوحيد للخروج من هذه النكسة ، ولميلاد النصر ، مع ادب الحرب ، وتغير المجتمع العربي الى صورة علمانية وعقلية في شتى المجالات الحضارية .

وقد اخذت نماذج هذا اللون طريقين : احدهما طريق التمرية للواقع العربي ونماذجه ، مرتبطة ، ولو بالاشارة المعارضة ، بتجربة الصراع العربي الاسرائيلي ، والآخر طريق التمرية لهذا الواقع العربي ، دون محاولة للربط بين تجربة الواقع ، وتجربة الصراع .

ولهذا اللون من ادب النكسة نماذج كثيرة وعديدة ، أسهم فيها جل القصاصين العرب مثل « نجيب محفوظ » بمجموعتيه القصصيتين الاخيرتين ، « شهر العسل » و « حكاية لا بداية ولا نهاية » و « زكريا تامر » في مجموعته القصصية « الرعد » وكثيرون غيرهما .
ومن الملاحظ ان قصص هذا اللون الناقد للواقع ، المجتمع عليه ، تأخذ لنفسها أكثر من سبيل ، حسب طبيعة الكاتب وجرانه ، وحسب الظروف الديمقراطية المحيطة به . فبعضها يلجأ في نقد الواقع وتعريته ، الى الرمز والتجريد والتضبيب ، وبعضها يلجأ الى تجارب مماثلة ،

بعد الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، عرفنا في ادبنا العربي الحديث ما يمكن ان نسميه بأدب النكسة . وفي الاشكال الادبية المعتادة من قصة وشعر ومسرح . ولم يكن هذا النوع من الادب جديدا . فقد كانت له بدايات ضعيفة في الادب العربي بعد نكسة عام ١٩٤٨ . وتمثلت هذه البدايات في الاعمال الادبية التي كتبت باقلام فلسطينية في شكلي القصة والشعر بصفة خاصة . وكانت هذه الاعمال الادبية الفلسطينية انصح من مثيلاتها التي كتبت باقلام عربية شقيقة في هذا الموضوع . ولان حرب عام ١٩٥٦ بين العرب واسرائيل الصهيونية ، لم تأخذ في وجدان العرب صورة النكسة ، فان ما يسمى بأدب النكسة في ادبنا العربي ، لم يتقدم كثيرا ، بمزيد من التطور والخصوبة والعمق .

لكن بعد حرب الخامس من يونيو (حزيران) ، واحتلال البقية الباقية من الارض الفلسطينية ، ومرتفعات الجولان حتى القنيطرة ، وسيناء حتى « القنطرة » ، بلغ ادب النكسة ذروته ، وما زال يمنح ابقاعاته من هذه الذروة ، في سائر الاوطان العربية ، وبخاصة تلك التي هزّ ضميرها الشعبي والرسمي والادبي ، الاحتلال الاسرائيلي السريع الواسع المفاجيء . ولم يعد الكتاب والادباء الفلسطينيون وحدهم المبررون من ادب النكسة ، فقد انضم اليهم معظم الكتاب والادباء العرب ، ومن بينهم السوريون والمصريون والاردنيون بصفة خاصة ، بعد ان نكبت بلادهم بالاحتلال الذي يخشى ان يصبح استيطانا ، بل ان يستفحل ، فيصبح المزيد من اهل المدن والقرى العربية لاجئين جسدا .

وادب النكسة في ادب الحرب .

ادب الحرب في حياة الشعوب ادب بناء ، يحث ويحفز ، يحفز ويشير ، يدافع ويهاجم ، ويعرك الهمم ، حتى اذا ما انتهت الحرب ، ظل ادب الحرب يتحدث عن الحرب باعتبارها ويلات اثارها النازيون والفاشيون والفاقة والمعتدون ، واصيرت بها الشعوب التي تمسك للتقدم والسلام ، وتحرك للنمو والتقدم ، والبناء والتعمير . كما ترى في ادب الحرب بالاتحاد السوفيتي وفيتنام ودول أوروبا الشرقية .

اما ادب النكسة فهو تعبير عن هزيمة لم تتحول بعد الى مقاومة كبيرة ، والى امل مفتوح للنصر والمجالة ، انه ادب في طريقه الى ان يكون ادب حرب بصوريته : صورته الواكبة للحرب الفعلية الفارية ، وصورته الختامية لهذه الحرب ، التي تعاول الاستفادة من دروسها الانسانية ، طلبا للسلام ، وسعيا الى الامن ، لكنه في الوقت نفسه ، يمكن ان يتحول الى ادب مراث للدول والممالك والحضارات ، كأدب

يستخدمها من التاريخ ، لفضح الواقع العربي ، او ربما أيضا لتصوير طبيعة الصراع العربي الاسرائيلي ، باعتبار ان التاريخ يكرر نفسه احيانا ، في تجارب الشعوب المهزومة امام غزاتها ، وبعضها يعمل التنمية بشجاعة المواجهة ، فينفذ الواقع ويعربه ، بصورة مباشرة ، قد تصل الى حد الهجاء ، والفضاء ، والخطابة ، والرثاء ، مستفيدا في وصول اعماله الى الجماهير ، من وجود اكثر من عاصمة عربية للادب .

فارس مدينة القنطرة :

على طول هذه المقدمة عن ادب النكسة ، فهي خطوط سريعة ، كان لا بد منها لفهم ما هو ادب النكسة ، وبالتالي نماذج ، في محاولة لاستفادة الناقد والقارىء منها ، عند مطالعتهما لمعظم القصص الاخيرة ، بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، وهي قصص عظيمة القيمة والاثر ، تقوم بدور النذير قبل البشير ، والايقظ قبل مجرد التنبيه . وينبغي للقارىء والناقد معا ، ان يواجهوا هذه الاعمال بالكثير من الفهم لما تقوله ، او تريد قوله ، او حتى تشير اليه ، وبالقليل من المحاسبة على الفن ، وبمقاييس الفن . فالقلم يتحول في يد قصاص هذه السنوات الرهيبة الى مصباح ، والقصة تحاول ان تقول ربما ما لا يمكن قوله بالمقال . وكاتب القصة العربي المعاصر ، مهما كان اتجاهه ومدربته الادبية ، اصبح له هدف محدد غالبا من كتابته ، واصبح يضع امام عينيه هذا السؤال : لماذا يكتب ما يكتب ، والآن على وجه الخصوص ؟

وفي ضوء هذه الافكار عن ادب النكسة ، احاول ان اقدم للقارىء ، قراءتي كقصص وقارىء لا كناقد ، كمواطن عربي لا ككاتب ، لمجموعة قصصية جديدة للدكتور عبد السلام المجيلي ، عنوانها « فارس مدينة القنطرة » (١) . وبدون مزيد من الملاحظات حول هذه المجموعة وقصصها الخمس ، سندخل مباشرة الى قلب هذه المجموعة وفكرها ، ورؤيتها لصراعنا العربي الراهن مع اسرائيل في القصة « فارس مدينة القنطرة » ، ولواقفنا العربي الراهن في القصة « مذاق النمل » و « نبوءات الشيخ سليمان » . وربما كان من قبيل التزديد ان نحاول التعرف ، بكاتب له من الكفاية في وطنه الصغير سوريا ، مالمحمود تيمور من الكفاية في وطنه الصغير مصر . فكلاهما رائد في فنه . وكلاهما وقيق الصلة بترائنا العربي فلسفته ولغته وادبه وشعره وحكاياته ، اسماره ونوادره ، حكمه وامثاله . ويزيد المجيلي على تيمور بانته راوية مدهش لهذا التراث ، بل ويحفظ نصف شعرنا العربي ، وفي كتبه تتجلى طبيعة هذا الراوية ، في قصصه ، ومقاماته ، ورحلاته ، ومحاضراته ، واحاديثه ، ومقالاته ، وهو ما سوف نلاحظه في قرائتنا الفكرية اولا ، لهذه المجموعة الجديدة ، الشديدة التأثير والاسر ، وبخاصة لو اتبع لها ولغيرها من قصص ادب النكسة ، المزيد من ملايين القراء العرب ، الذين يرزحون تحت اقسى الوان التخلف : الامية .

قصة « فارس مدينة القنطرة » يرويها مؤرخ لا يعرف عنه الا ان اسمه النعمان ، وان كنيته ابو وائل ، وانه فارس ، ومحارب ، وشاعر ، الى جانب غرامه بتدوين كل ما يمر به في يوميات ، وانه من مدينة القنطرة الاندلسية .

التاريخ يعيد نفسه :

ويروي الدكتور المجيلي في قصته ، انه سال عددا من اساتذة التاريخ العربي عن « القنطرة » فاخبروه ان الاندلس القديمة كانت تحوي اكثر من مدينة وقرية وموقع بهذا الاسم ، وبينها مدينة القنطرة التي تقع على نهر التاج ، قريبا من الحدود البرتغالية ، على طريق لشبونة .

ويرجع الدكتور المجيلي ، ان مدينة القنطرة التي يتحدث عنها

(١) منشورات دار الاداب ، بيروت .

الفارس الشاعر النعمان ابو وائل في مخطوخته ، هي « في جنسوب الاندلس بين قرناطة والساحل المتد من الرية الى الجزيرة الخضراء ، لان النعمان ذكر في مخطوخته ، في اكثر من مناسبة ، وادي طيبة ومدينة « طيبة » وذكر « رندة » و (جبل عبد العزيز) ، كما يرجح ايضا ، ان وقائع هذه القصة المخطوطة ، حدثت في سنة من «الواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، التاسع الهجري ، او اوائل القرن الذي يليه ، بعد سقوط اشبيلية وقرناطة في يد الاسبان ، وتراجع العرب الى مناطق الساحل الجنوبي ، تراجعنا مؤذنا بضياح ذلك الفردوس من ايديهم .

ولقد بدأت هذه القصة المخطوطة ، كما تقول اوراها ويومياتها ، في يوم الاربعاء الخامس عشر من شهر صفر ، من ذلك العام المجهول ، وانتهت هذه القصة المخطوطة في يوم الخميس السادس من ربيع الآخر ، اي بعد ما يقرب من شهر وواحد وعشرين يوما .

يحكي الراوي القديم ، الشاعر المؤرخ ، والفارس المحارب ، في مخطوخته ، قصة ضياح القنطرة ، وضياح أهلها بين لاجئين ، وغرباء في مدينتهم نتيجة للفوز الاسباني الذي لم يكن ليتنصر على أهلها ، الا نتيجة لخيانة فريق من ابنائها ، وقبولهم ان يكونوا عملاء للاسبان ، بل وان يكون معظم جندهم من الاسبان لا العرب ، ونتيجة للفرقة بين ابنائها ، وانقسامهم في مواجهة العدو الى معسكرين متنافرين: احدهما على شرفه وكثرته واخلاصه لاخبرة له ولا تمرس بفنون الخداع ، فيقومون ضحية لمكر العملاء ، والوصوليين ، والثاني على قلته خائن وغادر ، وبائع للاهل وللوطن ، نظير وعود بالناصب . وغارات بدوام السلطة ، ويستند مكره من مكر جيش العدو ، ولصالحه ، والذي يخطط له ويلعب .

على المسكر الشريف الاول ، كان القائد العربي المهلهل بن سلام . وعلى المسكر الثاني كان الامير ابن ساعر ، الفاسق الذي لا يصح له جهاد حتى لو اخلص النية . وعندما تصل الاخبار بان عساكر الاسبان ، يتجمعون لحرب العرب بقيادة القائد الاسباني « تودر » يستكسر المهلهل ان ينضم الى ابن ساعر ، لانه يعتقد انه غير مخلص ، بل انه يهدف الى ذبح خصومه العرب واولادهم ، ليخلص له حكم القنطرة . لكن الصراع بين العرب والاسبان ياخذ طريقه الى الدرورة فيتجمع خمسمائة فارس عربي بقيادة المهلهل بن سلام ، ويرابطون في سهل « السيسبان » ، لامر من : الامر الاول ، ان المهلهل ورجاله كانوا مقتنعين بان « تودر » سيهاجم القنطرة بجيشه من هذا السهل ، لانه نقطة الضعف في دفاع المدينة ، والمدخل اليها . الامر الثاني ، ان ابن ساعر مع ادراكه لهذه الحقيقة رابط برجاله واكثرهم ممن الاسبان ، على المرتفعات الجبلية في مضيقي « بنيسة » ، بالرغم من معرفته ان عددا قليلا من الرجال يكفي لدفع جيش بأسره عنه ، وان العدو لن يهاجم القنطرة من نقطة قوتها ، وانما من نقطة ضعفها ، من سهل السيسبان والكشوف والمفتوح . وهذه المعرفة من ابن ساعر تشير بكل اصابع اليد الى سوء نيته ، وتواطئه مع العدو الاسباني ، وعمالته لتودر ، وخداعه لقومه العرب .

وحاول الامير ابن ساعر محاصرة المهلهل بن سلام ، ومصادرة ما لديه ورجاله من الات العرب والزاد ، بحجة حاجة الجيش اليها : لكن تجمع اهل المدينة حول المهلهل ، حال بين جند « زنجالة » الاسبان ، وبين تحقيق فرضي الامير ابن ساعر ، ولولا ان حال الفقيه ابن حفص بين الناس وبين الجند « زنجالة » لاكتهم الناس ، فقد كان الفقيه ، لشدة حرصه على وحدة الصف في مواجهة العدو ، يريد تفادي حرب أهلية ، بينما العدو واقف على الابواب ، ولو لا بالصمت ، او انحاز الى معسكر المهلهل ، لتشير مصير القنطرة ، واهل القنطرة ، برغم الحرب الاهلية ، فالشغب هو القوة الاكبر ، وهو في جبهة المهلهل ، وان فتت في عضدة اشاعات الامير ابن ساعر ،

وتزايد جيش المهلهل في سهل السيبان ، وجاءت الاخبار بان جيش توذر يستعد للزحف نحو السهل من جانب المخاضة ، ومسمن وراء اشجار الزيتون . وانعقد مجلس الحرب في فسطاط « ابي بكر بن مرداد » ، قائد الجيش المضي . وعندئذ انجاز الفقيه ابن حفص كلية الى جبهة المهلهل ، بعد ان رأى اجماع الناس على الوقوف معه .

وكما توقع الجيش المضي ، جاء زحف جيش « توذر » على سهل السيبان ، عابرا المخاضة . وحدثت معركة لم تطل ، وانصرفت النصر لاهل القنطرة ، ولاذ الناجون من جيش « توذر » الى ما وراء المخاضة ، واحتنوا ببساتين الزيتون في سفوح التلال ، بينما احرق المضيون خيام معسكرهم في يوم الثلاثاء ، في الثامن والعشرين من صفر الخير .

ثم نرى في يوم الجمعة الخامس عشر من ربيع الاول صبية لاجئين من القنطرة الى طيبة ، وحریم المهلهل ، وما أمكن انقاذه من قصره في القنطرة ، فقد سقطت القنطرة ، وتحول اكثر اهلها الى ظمسون متلاحقة ، هاربة من القتل في القنطرة ، او من ذل أشد من القتل ، وراح النعمان يتمنى الموت ، والناجون يبيكون ، والاطفال يطلبون آباءهم .

لقد قتل المهلهل ، وقتل ابو بكر بن مرداد ، وضاعت القنطرة التي كانت قلعة بين المضايق ، و « امتع من عقاب الجو » . فما الذي حدث ؟ وكيف وقعت الهزيمة بعد النصر ؟

تلك الوقائع يرويها النعمان في يومياته ، على السنة الناجيين من الفرسان . وخلصتها الاخيرة ، ان جنسد « توذر » لم يغادروا مواقعهم في بساتين الزيتون على التلال ، وراء الجانب الآخر من المخاضة ، وان الامير ابن ساعر ، عندما رأى هزيمة سادته الاسبان ، من يدين لهم بالولاء ، لجأ الى الخديعة . فدبر ابن ساعر كميناً بإشارة توذر أو دبره بإشارة ابن ساعر ، فقد أرسل ابن ساعر رسولا الى المهلهل ، يخبره انه ينبغي عليه ورجاله ان يستسلموا ، لان مدينة القنطرة قد سقطت فعلا في يد جند توذر . وطلال الجدل حول هذا الخبر في معسكر المهلهل ، فذهب بنفسه ليتأكد من الخبر وهناك عند القنطرة ، وقع في الكمين الذي دبره ابن ساعر ، اذ قتل بعد دفاع بطولي ، وبرغم قلق الجند على مصائر اهلهم في القنطرة ، لم يتحولوا عن مراتبتهم في سهل السيبان ، بعد ان وعظهم الفقيه بن حفص ، وشد قاداتهم من أزرهم ، فأرسل اليهم ابن ساعر رسولا بخدمة اخرى ، يطلب نصف الجيش فقط لان طليعة من جيش توذر ، قد نزلت وادي شرشال ، لتقطع الطريق بين المقاتلة في سهل السيبان والقنطرة ، وقدم الرسول سيف المهلهل امارة على ما يقوله ، وخدع الجيش المضي ، فانصرف نصفه مع رسول ابن ساعر الى وادي شرشال وعندئذ حدثت معركة : احدهما في وادي شرشال ، حيث اصطدم جيش ابن ساعر بنصف الجيش المضي القادم . وكان جيش ابن ساعر الخائن يرتدي ملابس توذر ، ودارت معركة ضارية ، طحن فيها الجيش المضي الذي فقد قوته بانشطاره . والاخرى في سهل السيبان حيث عبر جيش توذر المخاضة في كثرة وفيرة العدد والمعدة السي البقية الباقية من الجيش المضي في سهل السيبان . وراح جيش توذر يدور حول الجيش القليل العدد ، دون أن يلتحم به ، وعندئذ جاء جيش الامير ابن ساعر ، وفي الحال اصطف جيش توذر على المسيرة صفوفها متراسة ، وتقدم ابن عمرو احد قواد العملاء لتوذر في جيش ابن ساعر ، واخبر قائد المضي في الموقع ، ابا بكر بن مرداد ، بان القنطرة قد سقطت في ايدي جيش توذر ، وبان ابن ساعر قد صالح توذر ، على ان يظل ابن ساعر اميرا على القنطرة ، ويظل ابن عمرو نائبه ، فاتهمه ابو بكر بالخيانة ، ورفع عليه سيفه ،

ولكنه لم يصبه في مقتل . بل اصاب ابا بكر سهم مراهق ، نفذ منه في مقتل . وتوقع رجاله ان يعاط بهم من الجانبين ، لكن ذلك لم يحدث ، فقد قتل قاداتهم ، وهم بعد قلة ، وهكذا انتصر جيش توذر ، وانصرف جيش ابن ساعر ، وتفرقت البقية الباقية من الجيش المضي ، بعد مصرع قاداتهم ، وبأسهم ، وقد قرأ في نفوسهم « ان الذي اتى على قرطبة واشيبيلية وقرناطة ، قد اتى على القنطرة او هو ات عليها مصيحا أو ممسيا » ، وقل منهم من قدر على بلوغ القنطرة ، فقد كانت الدروب مأخوذة عليها بجيوش الاسبان ، الذين تمثلوا في كل مكان يملأون السهل والجبل » .

ويقع الراوي المؤرخ الشاعر ، والفارس المحارب ، صريعا الحمى اياما في طيبة وحين يفيق في صباح اليوم السادس من ربيع الآخر ، يأتي اليه ابو مرداس الفزوي ، يخبره ان ابن عمرو في طيبة ، وانه يفخر بجهاد ، وبفصال سيده ، وانه « انقذ جيش المضي من ان يخاطر به ، حين تسلل العدو الى مدينة القنطرة ، فاستنقذه من الخطر ، وجمعه ليوم عظيم الكرة !! ويخبره ان مقاتلته كثيرة من الاشيبان » زنجالة الجبل قد جاءوا الى « طيبة » مع ابن عمرو ، ويظهرون ان نيتهم الجهاد ، وتتساءل الراوي النعمان بن وائل في يومياته الاخيرة : « أعوذ بالله من غضب الله . اترى طيبة تذهب كما ذهبت القنطرة » . وقول الراوي لابن مرداس : « اني على عنتي وضعفي ، لاقوم غدا في المسجد الجامع ، بعد الصلاة ، فاعرف الناس بحقيقة ما جرى ، واحذرهم من القتل » فيقول له ابو مرداس :

– انصحك بالا تفعل . انك لا تدري ما بالقوم من عمى ، كان الله ختم قلوبهم ، على سمعهم ، وعلى ابصارهم غشاوة ، فهم لا يفعلون ...

فقال له النعمان : « والله لافعلن ، ولو كان فيها نفسي » ويحس من غيظه بالقشمية تأخذ اطرافه ، وتعاوده الحمى ، لكنه يفيق عند الغروب . وأراني الآن في خير ، واني غدا لفاعلها .

هذا ما قاله الراوي القديم المؤرخ الشاعر ، والفارس المحارب « النعمان بن وائل في ختام يومياته الاخيرة من المخطوطة .

اما ما قاله الكاتب الدكتور عبد السلام العجيلي ، في نهاية قصته عن المخطوطة ، فقد كان بالحرف الواحد ، هو : « ما الذي فعله النعمان بن وائل بعد ذلك ؟ هل خطب يوم الجمعة ، فافرح ما في جعبته ونفسه ، أم تواني فلم يفعل ؟ هل عاوده المرض فمات ؟ أم حيل بالقسر بينه وبين ما كان ينوي ؟ لسنا على ثقة من شيء من هذا ، وكل الذي نعرفه ان طيبة التي يذكرها مدون المخطوطة فيما دون قد ضاعت ، كما ضاعت القنطرة قبلها ، وكما ضاعت قرناطة وطيطة وقرطبة واشيبيلية . أين تقع طيبة هذه ؟ ذلك لا يهمننا في شيء . فقد يكون هناك في الاندلس مدن كثيرة باسم طيبة ، مثلما مدن كثيرة باسم القنطرة ، وكلها ضاعت ، ونحن نعرف ان كل الاندلس ، من ايدي العرب ، قد ضاعت !! »

كرامة الانسان :

الصورة الاخرى لادب النكسة ، هي صور من داخل الوطن صورة تقدم التبرير والتفسير ، لما حدث في نكسات ثلاث بين العرب واسرائيل ، وتقدم جانباً من هذا التبرير والتفسير ، صورة ان الانسان العربي المهان ، تحرمه السلطة من كرامته الانسانية تسلبه هذه الكرامة بمذاق النصل .

هذه الصورة تحكيها قصة بهذا العنوان « مذاق النمل » تحكي القصة عن مجموعة قامت بانقلاب ، او ساعدت عليه في وطن عربي ، كانت مجموعة من اصحاب المثل ، فقتع افرادها بان يظلموا من رجال الصف الثاني .

لكن ، كما قام انقلاب قامت به عصبة مخلصه للحكم ، قام ضده انقلاب اخر ، فشل الانقلاب الاول ، ربما وهذا ما لا تقوله القصة –

لانه يلتقد صلته بالجماهير ، ولان رجال هذه المجموعة في الانفلاط الاول ، كانوا من رجال الصف الثاني فقد اعفوا من عملهم ، واغدى عليهم الخير . ليرضوا ويصمتوا ، لكن تمردا يحدث ، فيتهمون به زورا ويقض عليهم ، ويساقون الى السجن ، والتعذيب الرهيب الذي يسلب الانسان كرامته .

ويتجسد هذا التعذيب فيما يرويهِ « احمد » راوي القصة للدكتور العجيلي . خلال هذا التعذيب ترفع قدما احمد في « الفلقة » يوجهه الضرب فيصرخ صراخا لانظية اغاني السجن ومؤثراته التي تصخمها الميكروفونات المنبثة ، صراخ يفزع له الجالادون السبعة أنفسهم ورئيسهم . فيسد احدثهم فمه ، بحشو نعله نفسه في فمه . يصبح النعل في حسه وشعوره ، رمزا لفقدانه كرامته الانسانية : « تصور ذلك الحذاء في فمي ! لعلي قادر على ان انسى كل ما مر بي من عذاب ومهانة في ذلك اليوم ، وفي ايام غيره ، وكل شعور سعيد او شقي مر في سني عمري كلها ، ولست قادرا على نسيان مذاق النعل في فمي . من يستطيع ان يتصور مذاق النعل غير الذي ذاقه . . . لم افو على احتمال مذاق النعل في فمي ، فانفجرت كل ما في خلايا جسدي من قوى ، في انتفاضة حررتني من ابيسدي جلادي ، وكان اول ما فعلته والشئ الوحيد الذي فعلته ان انتزعت الحذاء من فمي ، وقذفته بقوة ، حتى سمعت صوت ارتطامه بالجدار . لم امتلك نفسي بعد تلك الانتفاضة الا قليلا ، فقد نزل بي الكرم والركن من جديد . . »

وخرجت هذه المجموعة يوما من السجن . كان « سهيل » احد افرادها ، فخلص من مذاق النعل بالموت ، تحطم معدنه ، لفرط حساسيته الاجتماعية ، وانتحر : « ان اطفالنا الصغار يتعلمون في المدارس ان النار ولا الغاز ، والنية ولا الدنيا . ولقد اثر سهيل النية فكان خيرا مني في التفكير وفي المصير » .

احمد هرب من بلده الى احدى امارات الخليج . ارتد الى البداوة ولبس ملابس اهلها ، الجلباء ، والعقال . انقذ كرامته الانسانية مرتين ، مرة بلطفه للنعل ، ورفضه لمذاقه ، ومرة بهربه من بلد يلوذ فيه اهله طم النعل ، حين يصحون خصوصا لسبب او لغير سبب ، وتودر عليهم الدائرة عمل مشرفا على المضخة التي تصفي المياه لشرب الشيخ . وبضبته له احيانا حساباته بين اهل بسطاء في العرفة ، ليس بينهم مثقفون . فانا لا استطيع ان اكتمل ان ربح الثقافة تخفني ، ومع شيخ « لا يؤمن الا بالكتاب . ويتحفظ القرآن » .

الاخرون لاموا سهيل لانتحاره ، وادانوه لهربه : « كان سهيل افضل مني ، وفضل بدون شك من بعض زملائنا الذين كانوا يزعمون انهم معنا ايمانا بالقيم الخيرة ، فلما هبت الريح الى اتجاه آخر ، مالوا معها ، هؤلاء الذين يزحفون في ركاب الموكب السائر الآن ، ليس لهم في نفسي اي احترام ، ما دمت ارى افواههم محشوة بالنعال ، وقد استموا مذاقها ، فهم لا يفكرون حتى في التخلص منها ولكنسي هنا ، على هذا الشاطيء البعيد ، اتساءل عن زملاء آخرين غير هؤلاء . زملاء في عصبتنا التي ملكت اعنة الامور في تلك الايام ، انهم لم ينقلوا كرامتهم بالموت ، كما فعل سهيل ، ولا تجردوا من انفسهم كما افعل انا ، بل عادوا الى الميدان ينتظرون في تيقظ ، او يعملون في الخفاء ، يجلدون اسواطا اخشن ، من تلك التي جلدت اناها ، وينحتون اخشابا اقسى من التي صلبت رجلاي عليها في السجن ، ويجمعون النعال ليحشوا بها فم الظالمين في يوم مقبل ، اترى هؤلاء افضل من سهيل ، او مني على الاقل ؟ »

ويعلق الكاتب الراوي على تساؤل احمد :

« وافكر في مغزى تساؤله الاخير . . ماذا كسان يعني بذلك التساؤل . بالتفكير فطنت الى ان احمد مشفق على الاناسي الذين

سترتفع اقدمهم على خشبة الفلق التي رفعت على مثلها قدماه ، وعلى الذين سيدوقون من مذاق النعل ما ذاقه . ان عذابه لم يقض على احساسه وانسانيته ، وامحاؤه لم ينسه وجوده ، وجوده كإنسان . وآية ذلك قلقه وحيرته ، وتساؤله ايهم خير : الميت ، ام العامل لغير ما يتلادم مع كرامة الانسان والانسانية ؟

الواقع والنبوءة :

والصورة الثالثة - لادب النكسة في هذه المجموعة القصصية ، هي ايضا صورة من داخل الوطن ، صورة تحكي في قصة « نبوءات الشيخ سليمان » مدى انفصال نوعيات المتطوعين لانقاذ فلسطين ، عن الشعب الفلسطيني ، عام ١٩٤٨ ، وبين هؤلاء المتطوعين ، المتمركزين في قرية بيت « جن » (بفتح الجيم) ، في الجليل غربي صفد ، وشمال الرامة ، في منطقة جبلية وعرة المداخل - شباب من مختلف الطبقات الاجتماعية والمستويات الثقافية .

ان اهل القرية لا يستقبلون هؤلاء بود وترحيب ، ويفتحون لهم بيوتهم ، الا بعد ان يصل اليهم فلسطيني اسمه ابراهيم ، ويقنع اهل القرية بهم ، وبنبيل مقصدهم .

وان احدهم ، وهو راوي القصة ، الذي اصبح يعاقر بنت الحان ، في بلده بعد النكسة ، يرى صورة كبيرة ملونة لجورج السادس ، ملك انكلترا . وزوجته الملكة اليزابيث ، في بيت الشيخ سليمان الذي يقيم صيفا فيه . فيصبح بمضيعة :

- كيف تجرؤ على ان تعلق صورة اعدائنا في صدر بيتك ؟

ويجذب الصورة بعنف في وجه مضيفه ويكسرهما ، فيجمع الشيخ بقايا زجاجها حزينا ، ويلقيها في فجوة في الجدار ، وراء جرة كبيرة ، ويخرج مطرق الرأس . لا يرفع رأسه ويندم المتطوع ، لما فعل ، ويذكر نفسه بان المنف يجب ان يحتفظ به للاعداد ، وان بني الوطن لهم اسلوب آخر لرد الضال منهم الى الصواب . وينهب المتطوع الى الشيخ سليمان الرقيق الوديع في عليته المكشوفة ، والمشرقة من داره على سفح الجبل ، فيجده يقرأ في مخطوط ، محركا شفثيه دون ان يرتفع له صوت ، ويتودد المتطوع اليه بالكلام باحثا عن طريقة يعتد فيها اليه من خشونة عمله ، دون ان يبدر اعترافه تراجع مشينسا ، ويتطرحان الشعر ، ولا يجب احدهما بلوق الاخر او اختياره . فالتطوع مدرس ادب في بلده ، والشيخ سليمان يقف عند الفيبات والنبوءة .

ويحتج الشيخ سليمان لا على كسر الصورة ، وانما على الطريقة التي كسرت بها ، ويتهمة انه ورفاقه عاجزون عن العلم ، وليسوا اهلا له ، بل يقول :

« لو كان لك عقل لما كنت هنا . ليس هذا علما بل هو تفكير » وعند فجر تلك الليلة ، يعود اليه مدرس الادب المتطوع ، ويدخل عليه خلوته ، فيجس به من غير ان يراه ، ويأذن له بالدخول . ويدور بينهما حوار ، تتخلله نبوءات الشيخ سليمان ، قال الشيخ سليمان ساخرا :

- كان الاحسن لك ان تظل في فراشك ، وتشبع نوما . يجب ان تعنتني بصحنك ما دمت جئت لتتأرب ، فلا بد لمن يريد ان يذبح الخروف ان يسمنه اولاً . اليس كذلك يا بني ؟

- من الذي سيدبح في هذه الحرب يا شيخ .

- كثيرون . . ألم تأتوا من مدنكم وقرامكم لتموتوا هنا . . ولكنكم لن تموتوا جميعكم . الطيبون منكم سيموتون .

- وانا ؟ . . اتراني طيبا ؟

- قلت ان الطيبين وحدهم سيموتون . اما انت ، فستعود الى اهلك سالما ، لانك لست طيبا .

ثم قال الشيخ سليمان :

يضلها من الدرر؟ .. هات كاسي الثانية يا ابا معروف . شكرا الان
استطيع ان اسكر » .

قلعة جعير :

ولعله من المفيد هنا ، ان نقل عن العجيلي ، من كتابه « اشياء
شخصية » سطورا ذات مغزى ، وثيقة الصلة بموضوع قصة « مذاق
النعل » ، وبمقصص هذه المجموعة من محاضرة له عن الكرامة
الانسانية ، القاها العجيلي في مدرج جامعه دمشق ، في الاحتفال
الذي اقامته رابطة الدفاع عن حقوق الانسان . عام ١٩٦٤ . يقول :

« في تاريخ بلادنا ، ان « جعير بين كثير الثغفي » ، كان يملك
قلعة على شاطئ الفرات ، لا تزال اطلالها قائمة هناك ، تعرف باسمه ،
قلعة جعير . واذا كان موقعها مريعا . متسلطا على المواصلات فسي
جانبي الفرات ، فقد فاوضه امير حلب « خالد بن بدران » ليسلمه
القلعة ، على ان يعطيه بدلها اخصب الاراضي في سهول حلب ، في
تألف وبزاعة . فقبل جعفر بن كثير بالمبادلة ، وانتقل الى ذلك
السهل الغني اخصب ، ينمي المال ، ويبحث عن الترف . وفي ذات
يوم ، بعد ذلك بسنين ، مر بجعفر احد معارفه القدامى من البداة ،
وساله عن امره وحاله . فتنهد جعير ، وقال : تسألنا عن حالنا ؟ فقدنا
العز منذ فقدنا القلعة .. فحذار من ان تظت هذه القلعة من بين
أيدنا بالتراخي او بالفرجات . وحذار من ان نقول بعد فقدنا يوما :
لقد فقدنا العز ، منذ فقدنا القلعة « قلعة الكرامة الانسانية » .

بعد ذلك نجد في هذه المجموعة القصصية «فارس مدينة القنطرة»
قصتين : « الحب في قارورة » و « العراف » او « زقاق مسنود » .
يمكن ان يقال عنهما بالتجوز والتاويل او لهما صلة بادب النكسة ،
لانهما تقدمان نماذج شرقية مريضة ، ومختلفة عن روح العصر ، ونماذج
الانسانية المتطورة ، كتبرير آخر لما حدث قديما ، ولما يحدث في ازمة
تالية لمدينة القنطرة ، التي هي كل مدينة عربية مقتصبة ، او فسي
طريقها الى الاغتصاب ، اذا لم يمل الى الجانب الاخر ميزان القضاء ،
وتثقل كفة العدل في يد القدر تتحرك امة بأسرها ، لتغير ما بانفسها
واقمها . لكنني ارى هذا التاويل بالنسبة لهاتين القصتين مفتعلا ،
وليس له سوى اتصال واه بموضوعنا . فهما من القصص الاجتماعية
المتعاد ، الذي يصعب ان نجد له صلة في هذه القراءة الفكرية ، بادب
النكسة المقدمة الاولى لادب الحرب او لادب رثاء .

سليمان فياض

القاهرة

صدر عن دار مكتبة التربية
كتاب

الامام الحسين

تأليف العلامة الشيخ

عبد الله العلايلي

يطلب من جميع المكتبات الكبرى

— جئتم تنقلون فلسطين ، اهلا وسهلا بكم . هل تظنون سهلا ان
تظهر هذه الارض بمائة او مائتين من المتطوعين ، وبعض البنسادل
والرشاشات ؟ في قديم الزمان كان يموت الانبياء وتسبى الشعوب ،
وكانت تهدم الهياكل ، وتسيل الدماء انهارا حين يتدنس حجر من
هذه الارض . فمن انتم حتى تظهر بيوتم ، وحدكم ، فلسطين ؟
الطيون وحدهم هم الذين يموتون هنا ، وليس فيكم من الطيبين ما
يكفي لتطهير هذه الارض من الدنس الذي فيها . ولذلك قلت انك
ستعود الى اهلك سالما ، انت وامثالك ستعودون سالين . من فشلكم
هنا ستكسبون قوة ، وسيصبح لكم سلطان . ومع انكم غير طيبين فانتم
غير خبيثاء فلذلك ستموتون ، في بلادكم ، في سبيل فلسطين ..
ستموتون ان لم يكن بالجسد فبالروح ، ثم لا يكفي هذا لانقاذ فلسطين .

— اليس عندك لنا غير الموت يا شيخ ؟ اتق الله في شبابتنا .

— موت جماعة واحدة لن يظهر الارض يا ابني . بعدكم سيأتي
اناس هم دوتكم ، اناس لم يخوضوا الحرب ، فلم يفسلوا فيها . انهم
دوتكم في العمل ، ولكنهم مثلكم في حب القوة والسلطان ، وفوقكم
في الفرور . هؤلاء سيموتون ايضا . من لم يموت بجسده فبروحه ،
في سبيل هذه الارض . وذلك لن يكفي . جماعات اثر جماعات تعاقب
ثم تقترض على هذا السبيل . يجيء الطيون في البدء ويذهبون ، ثم
الاول طيبة ، ثم ياتي الخبيثاء . نعم . ان الخبيثاء لا بد قادمون او تلك
الذين يبيعون ارضهم وملتهم ، ويتظاهرون انهم يضحون في سبيل
الارض والملة ، ويأتي بعد ذلك الخونة الكاذبون ، ثم خونة صادقون
لا يبيعون الارض بل يتصلون منها . كل هؤلاء سيأتي بدوره . من
ينفض يده من فلسطين ، لانها وقعت في حفرة اعمق من ان تلحقها يده
المنقذة ، ومن يبيع الامها واطفالها بفلس ، او بضحكة امرأة . ويأتي
من دمك ولحمك من يتصل من فلسطين ، لانها تنقص نومه ، او تفقر
جيبه . وبعد كل هؤلاء ياتي الآخرون . اذا كان من قبلهم قد قبض ثمن
الذي باعه من تراب الارض المقدسة ، او من دم اهله ، فسان هؤلاء
سيدفعون فوق الارض لثمن اخلصهم منها ، ومن اهليها . حينذاك ،
حينذاك فقط ، بعد ان يموت الناس ، ويحترق التراب ، ويحكس
الغاشل ، ثم العاجز ثم الخائن ، ثم الفاجر ، تهتز جنبات الارض ،
وتحيل الامة بالالام ، لتلد المنقذ الطهر . هل فهمت ما اقول ؟ لم تفهم
هند الغروب ، فهل فهمت الان ؟

كان منظر الشيخ سليمان غريبا ، وصوته قد ارتفع الى الطبقة
الحادة ، واكنسى رنة الغضب . « ويتكلم بلسان في وجه من الشمع
ثابت التعابير » .

وبعد سنين يحكي مدرس الادب ما حدث له في بيت « جن » ،
من خلال متولوج طويل ، وتداخل في الزمن بين الماضي والحاضر ،
ويروي نبوءات الشيخ سليمان لرفاقه ، في حانة « الشاب الطريف » ،
وللساقي معروف . فلا يصدقونه ، بعد ان مر خمسة عشر عاما ، بعد
ان ضاعت « بيت جن » في لواء الجليل ، الذي لم يكن به اسرائيلي
واحد ، فاصبح يخفق فوقه علم اسرائيل ، واصبح المحاربون القدامى
يسكرون لا بالخمر ، وانما من الملق بالراديو ، الذي لا يكف عن حرب
الكلمات ، واحدا بعد آخر ، ومن محطة الى اخرى .

ويقول مدرس الادب ، المتطوع القديم لرفاقه : « مات منا الطيون
ويقي من لم يموت ليثري ، او ليتحر ، او ليحكم ، وصارت لبعضنا
كما تبا الشيخ سليمان دولة وسلطان ، ثم تولوا ليأتي من بعدهم ومن
بعدهم ، في انتظار ان تظهر فلسطين من الرجز والدنس . نعم سيأتي
الحاكم الذي يبيع فلسطين ، ثم الذي يدفع مالا ليتخلص من فلسطين
بل لعل هؤلاء اتوا ، وهم يفودوننا ونحن لا ندري . السناسكارى
باقوال هذا الملق الذي في كلامه من النشوة ، اكثر مما في كل
بطحاتك يا ابا معروف ، اما قال ابو العلاء ان الارض محتاجة لطوفان